جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري

الدكتورة صورية عائشة باية بن حسين

أستاذة محاضرة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - الجزائر.

تقديم

أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية

سعادة الدكتور وصفي عاشور أبو زيد

زقاق الكتب

جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري

الدكتورة صورية عائشة باية بن حسين

زقاق الكتب

جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري

الظاهرية والمقاصد، مصطلحان يُخيَّل للوهلة الأولى أنّه يستحيل الجمع بينهما: (حرفية وجمود ظاهري) و (تعليل واستنباط مقاصدي). وقد ترسّخت هذه الصورة الموروثة عن الإمام ابن حزم الظاهري عبر الأجيال، حتى غدت من المسلّمات عند طلاب العلم وكثير من العلماء. غير أنّ هذه النظرة تبقى قاصرة عن الإحاطة بحقيقة فكر هذا الإمام الكبير؛ فهل يُعقل أن ينحصر عقل موسوعي ألف المحلّى والإحكام وغيرهما من المصنّفات الجامعة، وتقلّد الوزارة ومارس الفقه الواقعي ساعياً إلى وضع الحلول العملية لقضايا مجتمعه ودولته، في جزئيات فرعية كحكم البول في الماء الراكد؟ إنّ مثل هذا السؤال كان مدخلاً لإعادة قراءة تراث ابن حزم بروح موضوعية، بعيداً عن الصور النمطية، فإذاً نحن أمام اجتهادات رصينة وراقية تُراعي مقاصد الشارع من وضع الشريعة ابتداءً، بما يكشف أنّ ظاهريته لم تكن بحال مرادفةً لجمود حرفي.

الدكتورة صورية عائشة باية بن حسين.

زقاق الكتب

+90 553 915 40 09 facebook.com/zuqak

Fatih Istanbul Turkey www.zuqak.com

تصميم الغلاف

www.beanfordesign.com

9 789256 725843

رقم الإيداع	978-625-6725-84-3
اسم الكتاب	جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري
اسم المؤلف	صورية عائشة باية بن حسين
الطبعة	الأولى 1447 هـ / 2025 م
دار النشر	زقاق الكتب للنشر والتوزيع

+905539154009

facebook.com/zuqak

Fatih – Istanbul – Turkey

www.zuqak.com

تقديم لكتاب جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري

تأليف: د. صُورية عائشة باية بن حسين

بقلم أ.د. وصفي عاشور أبو زيد

أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة الإسلامية

الحمد لله الذي أنزل شريعته لهداية الناس، وجعلها عدلاً ورحمة ومصلحة، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، وبلّغ الرسالة ببيان النص وروح المقصد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد.

قصتي مع ابن حزم

فإنّ الإمام ابن حزم الظاهري (أبا محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي القرطبي. ت: 456هـ) يُعد من عباقرة الإسلام، لا بل من عباقرة الإنسانية على مر عصورها، لما تميز به من عبقرية في الاستدلال، وموسوعية في التكوين المعرفي، وعملقة في تناول الأفكار وطرح الرؤى، وعمق راسخ في مناقشة الخصوم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة، ومهاراته الفائقة في تحويل أدلة الخصوم من أدلة لهم إلى أدلة عليهم؛ فإذا انتهى من نقاش الخصوم في مسألة من المسائل فنَّد آراءهم، وأبطل حججهم، وتركهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وإنني أعلن أنني من المعجبين بابن حزم، وعقله الكبير، وبديهته الحاضرة، واستدلالاته العبقرية، وعلاقتي به ترجع إلى عام 1999م؛ حيث بدأت الكتابة في رسالتي للماجستير التي كانت بعنوان: "نظرية الجبر في الفقه الإسلامي: دراسة تأصيلية تطبيقية"، والجبر بمعنى الجبران: إكمال النقص، وإصلاح الكسر، واستدراك ما فات، نشرتها دار السلام عام 2007م، وكانت الرسالة تقارن المسائل التطبيقية على المذاهب الفقهية الثمانية: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي، والظاهري، والزيدي، والإباضي، والإثني عشري، وهذا كان مرهقًا لي كثيرًا، لا سيما وأنا باحث في مرحلة الماجستير.

كنت في هذه الرسالة أورد آراء المذاهب الثمانية في المسألة الواحدة، وكان ذلك قبل ظهور الموسوعات في الأقراص المدمجة (الأسطوانات)، فكنت أتعب تعبًا ملحوظًا في جمع آراء المذاهب الثمانية، وإيراد أقوالهم فيها في المسألة الواحدة، والتفكير بعد ذلك في أيها الراجح من المرجوح.

وكنت كلما مللت من ذلك توجهت لابن حزم في "محلاه" – وما أحلاه! – أطلب الرَّوْح والاسترواح في التبسم من عبقرياته الاستدلالية واستدلالاته العبقرية، وكيفية قلب أدلة الخصم عليه بعد أن كانت له، وسلاطة لسانه في الرد على خصومه التي كنت أضحك منها كثيرًا، وقد يصل بي الحال إلى أن أنقلب على ظهري من شدة الضحك، وكانت زوجتي تأتي إليَّ كلما سمعت ضحكاتي من ردود ابن حزم وتمكنه من رقاب خصومه بالحجج والبراهين، فتسأل عن سبب هذا الضحك!

وظللت هكذا إلى أن جاءت مسألة من المسائل التطبيقية في الرسالة – لا أتذكرها الآن – وخالفت ابن حزم فيها، وجعلت رأيه مرجوحًا، ورجحتُ فيها رأي غيره من المذاهب، وفي ليلة من الليالي رأيت فيها ابن حزم في رؤيا لا أنساها، وكان ذا هيبة ظاهرة، وهيئة عظيمة، وطلعة مشرقة، تترك في النفس شعور التقدير والإجلال لهذا العلم الكبير، وأخذ ابن حزم يناقشني في المسألة التي خالفته فيها، وخشيت في الرؤيا أن يقلب حججي التي لي فتصبح عليَّ، كما خشيت من ألا أسلم من سلاطة لسانه وتعبيراته الناقدة التي يرسلها شُواظًا من نار على خصومه، ولكنه لم يفعل ولله الحمد؛ فتهيبته في الرؤيا، واستيقظت على هذا التهيب، ولم أعْدل عن رأيي في مخالفته في تلك المسألة.

ثم انفتحتْ شهيتي بعد ذلك على كتب ابن حزم مثل: طوق الحمامة في الأُلْفَةِ والأُلَّاف بتحقيق أستاذنا الكبير الطاهر أحمد مكي، ، ورسائل ابن حزم بأجزائه الأربعة بتحقيق د. إحسان عباس، والفصل في الملل والأهواء والنحل بمجلداته الخمس بتحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، ذلك الكتاب الذي أسس به علم مقارنة الأديان، ومداواة النفوس وتهذيب الأخلاق، ومراتب الإجماع، والإحكام في أصول الأحكام، وإبطال القياس؛ فضلا عن كتابه الأبرز "المحلى"؛ حيث كان يُعجبني في مؤلفاته أنه يكتب لغة العلم بأسلوب أدبي ينتمي للطبقة الأولى من الكتاب والأدباء، وما أحوجنا لهذا اليوم؛ حيث تُقدَّم البضاعات الرديئة في أبهى صورة وأجمل حلة، وأهل الحق يقدمون بضاعتهم في صورة رثّة وأسلوب رديء، إلا من رحم الله، وقليل ما هم!

العلاقة بين النص والمقصد

نعود لموضوعنا فنقرر أن قضية العلاقة بين النص والمقصد تمثل إحدى أهم الإشكاليات المنهجية في علم أصول الفقه، وقد تبلورت معالمها منذ القرن الأول الهجري، وظلت تتطور حتى تبلورت في علم مستقل هو

علم "مقاصد الشريعة". وتزداد أهمية هذه الإشكالية في زماننا المعاصر، حيث تتجدد الحاجة إلى فقهٍ يجمع بين الوفاء للنصوص والإدراك العميق لمقاصدها، وبين الحرفية والروح، وبين الثبات والاجتهاد.

وفي هذا السياق العلمي الرصين، تأتي هذه الدراسة القيمة تحت عنوان: "جدلية النص والمقاصد عند ابن حزم الظاهري"، لتسلّط الضوء على أحد أبرز أعلام المدرسة الظاهرية، وأكثرهم تأثيرًا وجدلاً، ألا وهو الإمام أبو محمد علي بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ)، من خلال استقراء موقفه من العلاقة بين الظاهر النصي والبعد المقاصدي في التشريع الإسلامي.

فصول البحث وخطته

وقد قسمت المؤلفة هذا العمل العلمي إلى فصلين رئيسين وخاتمة، وتدرجت في معالجة الموضوع من الأسس النظرية إلى التطبيقات الاجتهادية، على النحو الآتي:

الفصل الأول: مدلول المقاصد من خلال أصول ابن حزم الظاهري، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: عرضت فيه المؤلفة ترجمة ابن حزم، ومكانته العلمية، ومنهجه الظاهري، وموسوعية إنتاجه، مع بيان سمات شخصيته النقدية، وحرصه على الاستقلال الفكري.

المبحث الثاني: تناولت فيه دلالة مصطلح المقاصد عند ابن حزم من خلال تحليل نصوصه الأصولية، وبخاصة في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام". وقد بينت المؤلفة الكريمة أن ابن حزم، وإن لم يستخدم لفظ "المقاصد" بالمصطلح المتأخر، فإن فكره لم يكن خاليًا من الوعي المقاصدي، وإن كان منضبطًا بقيود النص وظواهره.

وقد كشفت المؤلفة أن ابن حزم ينطلق من ثلاث قواعد كبرى تؤطر موقفه من النص والاجتهاد، وهي: قاعدة اليقين ونفي الظن، قاعدة الظاهر ونفي التأويل، قاعدة الاجتهاد ونفي التقليد. وهي قواعد تجعل من النص القرآني والنبوي مركزًا للمعرفة الشرعية، وترفض كل ما لا ينبني على دلالة قطعية من ألفاظ النصوص، غير أن هذه الصرامة الظاهرية لا تمنع من وجود إشارات مقاصدية ضمنية في منهجه، خاصة حين يتعلق الأمر بحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية.

أما **الفصل الثاني** فقد جاء بعنوان: مراعاة المقاصد في اجتهادات ابن حزم؛ حيث تناولت الدراسة بالتحليل اجتهادات ابن حزم التي راعى فيها مقاصد الشارع من وضع الشريعة ابتداء، وقد استقرأت الدراسة

مجملها من كتابه "المحلى"، ولم تجد أوضح من اجتهاداته في حفظ المال العام والنفقة، ومن هنا تكوّن هذا الفصل من مبحثين تطبيقيين:

المبحث الأول: مقصد حفظ المال العام، وفيه تبرز الباحثة المدققة كيف أن ابن حزم – رغم إنكاره للقياس والمصلحة المرسلة – أفتى بفتاوى تؤسس عمليًّا لحماية المال العام، من ذلك: قوله بوجوب منع الضرر على المال وصاحبه، ورفع كل ضرر يمنع من نمو المال وزيادته، ومنه كذلك: فتواه بإلزام الأغنياء بالضريبة فوق الزكاة إذا لم تكفِ لسد حاجات الفقراء، مستندًا إلى نصوص عامة من الكتاب والسنة. كما توسّع في وجوب الزكاة لتشمل أنواعًا لم تُجمع الأمة على وجوبها كحلي المرأة، والمهور، والديات. وقد علل هذه الأحكام بضرورات العيش وكرامة الإنسان، وهو تعليل مقاصدي صريح، يعكس فقهًا اجتماعيًا مستندًا إلى مقصد **الكفاية والعدالة الاقتصادية**، وإن لم يسمِّه كذلك.

المبحث الثاني: مقصد حفظ النفقة، وفيه تتناول المؤلفة النابهة اجتهادات ابن حزم المتعلقة بنفقة الأقارب والأبناء والزوجات، حيث يُظهر تشددًا في إلزام النفقة، وتوسّعًا في من تجب لهم، حتى إنه أوجب على الأغنياء إعالة كل من لا يجد القوت من ذويهم. كما أفتى بأن "الغنى" لا يُحد بمقدار مالي مجرد، بل بما يكفل للإنسان حياة لائقة تحفظ كرامته في المأكل والمشرب والمسكن والمركب، مما يدل على تبنيه لمفهوم موسّع للغنى قائم على **العيش الكريم**، وهو من صميم مقاصد الشريعة في جانب **حفظ النفس والنسل والكرامة الإنسانية.**

تأصيل مشفوع بالتطبيق

وقد قدمت فيه المؤلفة نماذج تطبيقية حيّة من فقه ابن حزم، فلم تقتصر على التأصيل والتنظير؛ حيث أظهرت فيها كيف أن التزامه الظاهري بالنصوص لم يمنعه من إدراك معانيها وغاياتها، وإن لم يسمها "مقاصد" كما هي في الاصطلاح المتأخر، ويمكن الإشارة إلى عدد من النماذج التي اعتمدت عليها المؤلفة لتوضيح موقف ابن حزم من النص والمقصد، وبما يبرهن على أن الكلام الذي ذهبت إليه المؤلفةة ليس مجرد كلام نظري، وإنما هو مشفوع بأمثلة تطبيقية عند الإمام ابن حزم نفسه، نذكر منها:

في مسألة الحضانة، يرى ابن حزم أن الطفل يُنقل إلى من يحقق له المصلحة الدينية والدنيوية، حيث يقول: "فإن لم تكن الأم مأمونة في دينها ودنياها، نُظر للصغير والصغيرة بالأحوط في دينهما ثم دنياهما"، وهذا يدل على أن المصلحة هي معيار الترجيح، لا مجرد ظاهر النص، رغم أن ظاهر المذهب الظاهري لا يجيز التعليل بالمصلحة.

في مسألة الزكاة والنفقة على الفقراء، قرر ابن حزم وجوب توسيع نطاق الزكاة والضرائب لضمان العيش الكريم للفقراء، حتى لو استلزم ذلك فرض الضرائب الإضافية إذا قصّرت الزكاة، وهذا يدل على إدراكه لمقصد تحقيق الكفاية، وهو من مقاصد الشريعة الاقتصادية والاجتماعية.

في حكم استماع الغناء، يجيز ابن حزم ذلك بشرط أن يكون بنية الترويح المشروع لا اللهو المفضي إلى المعصية، وهو ما يدل على اعتبار النية والمآل، وهما من أدوات النظر المقاصدي.

في تحليل المعاملات المالية كالقِراض، يجيز ابن حزم القرض الاستثماري رغم غياب النص الصريح، استنادًا إلى إجماع الصحابة، ومن منطلق أن حاجة الناس إليه ملحّة، في إدراك عملي لمقصد حفظ المال وتنمية المعاش.

أهمية هذا البحث

إن هذه الدراسة القيمة تنبع أهميتها في نظري من أمرين:

الأمر الأول: أنها حملت من الجديد ما تستحق عليه التنويه؛ إذ قدمت صورة لا يكاد يعرفها أحد حتى من الباحثين المعاصرين عن ابن حزم، فالصورة المشهورة عند ابن حزم في العقل البحثي الشرعي الجمعي هي "الحرفية" ، و"الظاهرية" التي قادته أحيانا - اتساقًا مع ظاهريته - إلى اجتهادات قد تبعث على الضحك، ولكن هذا البحث يقدم لنا صورة مختلفة عن ابن حزم، ليس من خلال تحليل أو تأويل، أو اجتهاد من عند الباحثة، وإنما من خلال كلامه هو، واجتهاداته هو؛ فالدراسة بذلك تقدم إعادة قراءة منهج ابن حزم قراءة عادلة، تميز بين الجمود المنهجي والصرامة النصية المنضبطة، وكذلك فإن الدراسة عملت على إبراز التنوع الداخلي في المدرسة الظاهرية، وأنها ليست ضد المقاصد جملة، بل ضد استنباطها عبر أدوات ظنية أو باطنية، واجتهدت الدراسة بذلك في الإسهام في النقاش المقاصدي المعاصر من خلال استحضار موقف مدرسة مهمّة من مدارس التراث، كما تمثل الدراسة بذلك أيضا حلقةً واصلة بين الدرس الأصولي المعروف والتفكير المقاصدي المعاصر، وتشكل الدراسة أخيرا إضافةً نوعية في مجال الدراسات الظاهرية، لا سيما في ظل الحاجة المعاصرة إلى فهم مركّب للعلاقة بين النص والمقصد، يحترم النص، ولا يُقصي المعنى، ويجمع بين الأمانة والمنفعة، وبين الثبات والاجتهاد.

والأمر الثاني: وهو أن التي قامت بهذا العمل باحثة مقتدرة، وأستاذة فاضلة، وهي الأستاذة الدكتورة صُورية عائشة باية بن حسين؛ حيث تعمل أستاذةً محاضرةً بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بكلية

الشريعة والاقتصاد، في قسم الشريعة والقانون منذ سنة 2008م الذي عملت فيه عضوًا في اللجنة العلمية، ومسؤولة التخصص ماستر شريعة وقانون.

ومما يزيد البحث أهمية، ويعزز الثقة فيه لدى القارئ أن باحثتنا البارعة قد تخصصت في فقه ابن حزم حتى تضلعت منه؛ فهي متحصلة على شهادة الماجستير عن "منهجية ابن حزم في تفسير النصوص مقارنة بالقانون الوضعي " وكذلك الدكتوراه عن :" الإلزام في التصرفات المالية عند ابن حزم الظاهري مقارنة بالمذهب المالكي و القانون الجزائري "، مما يزيد من قيمة هذا الكتاب وأهيته وقيمته العلمية.

أسأل الله أن يجزي أختنا الكريمة د. صورية خير الجزاء، وأن يحسن إليها فيما كتبت وقدّمت، ويبارك في هذا الجهد العلمي المتين، الذي أضاف به لبنة رصينة في مدونة الدراسات المقاصدية والأصولية المعاصرة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

كتبه الفقير إلى عفو الله تعالى

وصفي عاشور أبو زيد

اسطنبول 25 محرم الحرام 1447هـ الموافق 20 يوليو (تموز) 2025م